

خطاب صاحب الجلالة
بمناسبة عيد الشباب

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله

شعبي العزيز :

شاءت إرادة الله وعناية والدي طيب الله ثراه أن تجعل من هذا اليوم، من التاسع من شهر يوليوز، ذكرى ميلادي، أن تجعل منه يوماً يحتفل به المغرب، وتحتفل به الأمة المغربية، ويحتفل به الشباب خاصة، وإن أنس فلا أنسى ذلك اليوم الأغر والخطير في آن واحد يوم تاسع يوليوز سنة 1957 حينما أضفى عليَّ والدي رحمه الله شرفاً وعبئاً لما أخذ لي ولاية العهد وعقدها لي، مازلت أذكر النصائح الثمينة والارشادات القيمة التي وجهها إلي في ذلك اليوم.

فما زلت أذكر ذلك القسم الخطير الذي أخذته على نفسي أمامه وأمامك أيها الشعب العزيز.

ومنذ ذلك اليوم، وحالتي كما قال الشاعر المتنبي :

حال المدبر أن أكون كما أرى

عين مسهدة وقلب يخفق

عين مسهدة لا تنام وأنت نائم، قلب يخفق وقلبك مرتاح، ضمير يحاسب نفسه كل دقيقة وضميرك مرتاح، مهيمنة عليه روح الطمأنينة والاطمئنان، وذلك، لأن الظروف والسنين، والأحداث والكفاح خلقوا جواً عجيباً غريباً عشت فيه منذ نعومة أظفاري، جواً من المحبة كاد يكون عبادة وثنية، جواً من الترابط كاد يصور الالتحام الحقيقي، جواً من الغيرة، جواً من الاعتزاز بالمغرب، ذلك الجو الذي يعيش فيه كل ذي نعمة وكل ذي خير يخاف زواله، وذلك حينما كنا نرى أن المؤامرات تدبر حولك، كل يوم وكل شهر، فكان يعز علينا أن تفلت من بين أيدينا فرصة النصر، كما كنا نخاف ونخشى أن يفرق بيننا الزمان، وتبتعد بنا الأوطان، وتفترق سبلنا، ويفرق بيننا المستعمر، كل ذلك كان كما أراده الله سبحانه وتعالى.

لقد حيكت المؤامرات، ونفينا من بلدنا، وصرنا نبكي عليك بكاء الثكلى، وصرنا لا ننام، ولا نفكر، حتى صرنا لا نذوق للماء طعماً، ولا للأكل لذة، وحتى صرنا لا نعرف للسماء لوناً أزرق، ولا لنبات الأرض لونه الأخضر، لم نكن نعرف إذ ذاك متى سنلتقي وكيف سنلتقي ولكن الشيء الذي كنا نؤمن به هو أننا يوماً ما سنلتقي، وكنت دائماً أقول : إن منطق التاريخ سوف يرغم الجميع على أن يعود محمد ابن يوسف إلى أرضه وعرشه، وذلك إما أن يرجع وفي يده الاستقلال والحرية، وإما أن يستقل شعبه، ويضع كشرط أولي وأساسي رجوع ملكه.

فكان هذا المنطق الذي خلقته لنفسي ولأسرتي، هو السبب الأساسي والحبل الوثيق الذي كان يربطنا بالأمل وبالايمان في الغد.

ومنذ ذلك اليوم يوم رجوع والدنا المنعم إلى أرض وطنه، كم قطعنا من أشواط وأشواط وكم عرفنا من أحداث وأحداث وعقبات وانتصارات في جميع المجالات فلم أكن يوماً من الأيام أنا ولي العهد، أشك في مستقبل

هذا الشعب، لأنني لمست بيدي حيويته وعبقريته.

لمست بيدي جديته، فهو شعب عندما تكبر الأحداث وتعظم الكروب شعب واعي لا يرضى أن يسخر به، ولا يرضى أن يكذب عليه أو يقال فيه، شعب عزيز كريم يعرف أهدافه، ويصل إليها وهو يطوي المراحل ويعمل الليل والنهار.

شعب أسدل عليه الله نعمة الاعتراف بالجميل، أسدل الله عليه نعمة التعلق بكل من خدمه، صغيراً كان أو كبيراً، وها نحن اليوم بصدفة عجيبة نحتفل بالأربعينية، ولكن أي أربعينية نحتفل بها ؟ هل هي لسن ميلادي ؟ أم الأربعينية للسلسلة الذهبية التي ربطت بين محمد الخامس والحسن الثاني ؟

فمحمد الخامس طيب الله ثراه، كما تعلمون، بقي على العرش 34 سنة، وأنا هذه هي السنة التاسعة التي قلدني فيها الله مقاليد الأمور.

أربعون سنة من حلقة ذهبية ولا نراها وراثة كجميع الوراثات الأخرى، بل أعتز أنها كانت وراثة سياسية وروحية في آن واحد، فكأننا على عرش ملك واحد، وكأننا لم يفارقنا إلا الجثمان، أما روحه الطاهرة فهي ترفرف حولنا.

فإذن لقد عرفتك منذ أربعين سنة وهذه أربعون سنة عرفت فيها والدي رحمه الله.

يقال أن الرجل حينما يبلغ سن الأربعين يبلغ سن الرشد، وحاولت أن أجد تفسيراً لسن الرشد، ولعل في القرآن التفسير الصالح والسليم حينما قال : (حتى إذا بلغ أشده) بمعنى أنه بلغ سن الوعي الكامل للمسؤولية الملقاة على عاتقه، فحينما عرف الله سبحانه وتعالى من نبيه صلى الله عليه وسلم إنه قد نضج لتحمل المسؤولية ويعيها ويفهمها إذ ذاك قال فيه أنه بلغ أشده.

هذا للأنبياء والرسل أما لسائر البشر فكل سنة هي سن الرشد كل طور في الحياة يجب على الانسان أن يبلغ فيه أشده، لأن كل يوم تظهر مشاكل، كل يوم توضع برامج، وكل يوم يجب على أي مسؤول كان أن يصبح دائما على بصيرة ووعي تام بالمشاكل التي سيعالجها والتي سيحاول حلها.

أما أنا فإنني واع بشيء واحد، هو أنني كلما عملت شيئاً أشعر بالتقصير، وكلما اجتهدت فلازم من أن أزيد في الاجتهاد، وكلما عملت سنبقى نعمل أكثر، وكلما فرحت بعمل كان سروري دائماً ممزوجاً بشيء ما من الواقعية وروح الانتقاد حتى يكون العمل عملا بانياً لا عملا هادماً.

وأنت شعبي العزيز أقول فيك قد بلغت أشدك.

بلغته منذ صرت أمة.

بلغته منذ كانت لك حدود.

بلغته منذ كان لك علم.

بلغته منذ كانت لك جنسية.

بلغته منذ كان لك نظام.

بلغته منذ كان لك جيش فتحت به ورفعت به كلمة الله في أطراف البلاد والمعمور، ومازلت حسب الظروف والملابسات تظهر أنك بلغت أشدك، وذلك البلوغ قد يكتسي في كل حال من الأحوال، وظرف من الظروف صبغة خاصة وتعبر عنه بكيفية خاصة.

في الأيام الأخيرة كنت أتتبع في حلقات التلفزة بعض الارتسامات التي أخذها عني بعض الأساتذة الرفقاء الذين مازلت أذكر لهم جميلهم.

وبكل أسف — ربما من فرط المحبة والتعلق وكما يقول العامة «كبدة» الأستاذ — إنهم أظهروني بمظاهر تفوق ما كنت عليه، وأريد أن تطمئن شعبي العزيز إلى أن الحسن بن محمد ليس سوى إنسان مثلكم وكان تلميذاً كجميع التلاميذ، لم يكن يتفوق دائما ولم يكن ينال الدرجة الأولى ولم يكن يجيب دائما بالجواب الذي يجب أن يجاب به على الأسئلة، ولكن الشيء الذي أقوله لك هو انه أيام دراستي تعلمت شيئاً مهماً جداً هو أنني تعلمت الطاعة.

إن والدي رحمه الله كان دائما يقول : «من لم يتعلم أن يطيع لا يمكنه أن يطاع» وروح الطاعة والامتثال هذه هي التي جعلتني غداة وفاة والدي طيب الله ثراه أقلب حياتي كلها رأساً على عقب، وأطيع الواجب بدون أن أطيع هوى النفس.

لما كنت أسير وراء جنازة والدي رحمه الله كان الناس سائرين وراء جنازة أبي.

أما أنا فكنت أسير وراء جنازتين : جنازة والدي وجنازة ولي العهد.

وهذه خطوة خطيرة قاسية لا يمكن أن يجتازها إلا من كان له غرام وأي غرام بشعبه وأمته، ولو لم تكن تلك المحبة التي كادت أن تكون وثنية تملأ قلبي وجوارحي لما كنت أستطيع أن أتحمل الصدمة وأن أتغلب على ذلك التغيير الجذري الذي أخذت على نفسي طابع حياتي الجديدة.

فالله سبحانه وتعالى أحمد على أنني من أول وهلة وجدت فيك شعبي العزيز الأخ الحنون والأب البار والمرافق الأمين منذ اللحظة الأولى من تربعي على عرش أسلافي الكرام، وما زلت أذكر صلاة الجمعة الأولى تلك التي وضعت خاتم الله سبحانه وتعالى على صك التعامل والترابط بيننا، حين شعرت منذ ذلك اليوم وشعرت أنت أن اللحمة موجودة.

ومنذ ذلك اليوم شعرت أن كل تضحية تحملتها وكل خطوة خطوتها لن تذهب سدى ولم تذهب هدراء بل وجدت تفسيرها ووجدت روحها فيك شعبي العزيز.

تريد شعبي العزيز أن تجعل من هذا العيد عيداً استثنائياً وحاولت أن أعرف لماذا ؟ وفي الحقيقة وصلت إلى النتيجة الآتية :

هذه النتيجة هي أنه تراكمت في قلبي وقلبك قوة من الحب تشبه البخار الذي يضغط وأول فرصة سنحت عبرنا عنها بهذا الشكل.

إن ذلك الضغط وذلك الحب وذلك التفاؤل وذلك الأمل والنظر إلى المستقبل بعين زرقاء لا بعين مظلمة

هي التي جعلتك شعبي العزيز تبحث عن أول فرصة يمكنك فيها أن تظهر ما تكنه لي من محبة ووداد.

ولقد صرت أشعر أن العواطف التي تربط بيننا ليست العواطف العادية التي تربط بين ملك وشعبه، وتعدت طور الاجلال والتقدير لكي تصل إلى أصفى شيء وأقواه في آن واحد، وهو الجرثومة الصغيرة من الحب، الحب السليم المتواضع، ذلك الحب الذي يربط الزوج بزوجه والأخ بأخيه والابن بأبيه والصديق بصديقه.

وصرت الآن أشعر أكثر من ذي قبل أن أسرتي هي 15 مليونا من السكان كما كان يقول لي والدي رحمه الله، لا بكيفية عامة أو بنظريات فلسفية أو اجتماعية ولكنني حينما أتكلم معك اليوم أشعر أن هناك 15 مليونا من الخيوط تربط بين قلبي وبين كل واحد منكم، وأنني أصبحت اليوم أفهم سر الاله في الحب والمحبة، القلب صغير ولكن يمكنه أن يسع الدنيا وما فيها.

قلت لك شعبي العزيز إننا قطعنا خطوات أخرى، خطوات لابد أن نكون على بينة منها حتى نعرف كيف نحلها، مشاكل معضلة، مشاكل قائمة، مشاكل لم يعرفها المغرب وحده ولكن عرفتها الدول الراقية والنامية وتكمن بالخصوص في الميدانين الاجتماعي والثقافي.

وهديتي إليك أنني في هذه المدة من العطلة الصيفية سأنكب بعزم وحزم على أخطر مشاكلنا وهي مشكل شبابنا وتعليمنا وتثقيفنا. وإنني أعتقد أنني إذا وجدت حلا لهذا المشكل أو على الأقل بدأت في حله ستكون أحسن هدية قدمها ملك إلى كل أسرة وإلى كل شاب يتطلع إلى المستقبل.

حقيقة ان مهنتي، لأن لي مهنة، لا ترتجل ولكن تعلم منذ الصغر، حقيقة لم يكن لي مشكل شخصياً بل كان لي مشكلان :

ــ المشكل الأول أنه لم يكن لي اختيار، وكنت مرغما على أن امتهن هذه المهنة.

ــ المشكل الثاني إن هذه المهنة لا تسمح بالسقوط في الامتحان، ففيها امتحانات وامتحانات، ولكن لا تسمح بالسقوط.

ولكن هذا لا يجعلني بعيداً أو غريباً عن كل شاب وعن كل ذي أسرة يفكر في مستقبله ويفكر فيما سيكون عليه غده ويفكر كيف يمكنه أن يواكب التطور ؟ وكيف يمكنه مسايرة العصر ؟ وكيف يمكن له أن يأخذ مكانه في المجتمع ويصبح عضواً عاملا في المجتمع ؟ وكيف يمكن له أن يضمن القوت لنفسه ولأهله وذويه ؟

هذه كلها مشاكل، مشاكل تراكمت ولم نصل لحد الآن إلى حلها وذلك لأسباب متعددة :

أولاــ لأنها حقيقة من أصعب المشاكل.

وثانيا لأننا ويجب علينا أن نقول ذلك ــ ينقصنا شيء من الشجاعة ومن ابتكار الفكر، ولكن هنا يصح قول الشاعر :

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني

فأنا مستعد أن أخوض معك غمار أي معركة على شرط أن أكون أنا أولا وأنت ثانيا نكون على خبرة

تامة بالمشاكل وبالأهداف وبالصعاب التي ستعترضنا في الطريق وبالأطوار التي يجب علينا اجتيازها لكي نصل إلى الأهداف.

هذا هو خطابي بالخصوص إلى الشباب، ليكن مطمئناً إنني سوف أعمل جهدي حتى لا تزداد على الاضطرابات الفكرية والتي تخامر ذهن كل شاب شاب أن تزداد بعدم وجود تصميم أو برنامج للتعليم والتكوين.

فاطمئنوا إذن إخواني الشباب، وسوف نحاول ونعمل جميعاً يداً في يد كما عملنا في جميع المشاكل وأمام جميع المشاكل ولي اليقين أننا سنجد حلولا ونتغلب على الصعاب.

وما ذلك على همتنا جميعاً بعزيز.

فالمشاكل الاقتصادية ولله الحمد هي في طريقها إلى الحل، والمشاكل الفلاحية ولله الحمد تسير سيرها، والمشاكل القانونية الادارية يمكن لنا أن نفتخر بأن لنا إدارة وجهازاً إدارياً وقانوناً اجتماعياً من أحسن وأرق القوانين.

فماذا بقي إذن ؟

فلم يبق لي إلا أن أتوجه إليكم جميعاً، جماعات وأفراداً في المدن والقرى بالشكر على مظاهر الأفراح والمسرات التي أظهرتموها بمناسبة عيد ميلادي، وأتوجه للكتاب والشعراء والملحنين والمغنين والمخرجين الذين نراهم أو نسمعهم ومن لا نسمعه ولا نراه لكي أقول لهم أن هذه الذكرى ستبقى عالقة في ذهني، وتكون لي حافزاً جديداً إذا كنت في حاجة إلى حافز جديد لكي أواصل عمل الليل بعمل النهار في سبيل إسعادك.

وأنت تعلم شعبي العزيز أن إسعادك هو هدفي الأول وإن اهتمامي بك فوق اهتمامي بكل شيء آخر، وإنني أعتقد شخصياً أن أسرتي الصغيرة مدينة لك أنت أسرتي الكبيرة.

مدينة لأنك في اليوم الأول منذ أن وطئنا هذا البلد الأمين شعرنا اننا في بلدنا وتزوجنا هنا وتناسلنا هنا واحتضننا المجتمع المغربي، وبعد ذلك جعل منا الله ملوكا وبعد أن جعل منا ملوكا جعل منا آباء للشعب وفوق هذا كله، كلل جهادنا وعملنا وكفاحنا بالتضحية في سبيل كرامتنا وعزنا ولا أنسى ما قاسيته شعبي العزيز حتى تبقى كرامة والدي موفورة ويبقى عز هذا العرش العلوي محفوظاً.

والله أسأل أن يطيل بيننا ويديم هذه الرابطة وهذه الروح روح التضحية المتبادلة، وأن يجعل من الثقة المتبادلة بينك وبيني تلك اللبنة الأساسية التي بدونها لا يمكنني أن أعمل أو أبني أو أشيد.

فاللهم اجعلني في مستوى مسؤولياتي، واجعلني يا رب في مستوى الآمال التي تعلقها علي أمتي.

اللهم حلني بالتواضع، وأبعد عني روح الجبروت واجعلني دائما قائما بالقسط حافظاً للعهد، وفياً لمن وفى ولغير من وفى، مسلماً مؤمناً مغربياً أصيلا حتى أرى في شعبي ما أحبه، إنني أظن أنه لا يمكنني أن أرى ما أحبه لأنني أحب المزيد دائما وكل ما رأيته لا أعتبره حداً ولكن أعتبره منطلقا.

ولكن اللهم بارك في أعمالنا جميعاً واجعل من هذا اليوم فاتحة عهد جديد لعبادك المغاربة.

والسلام عليكم ورحمة الله.

ألقي بالرباط الأربعاء 23 ربيع الثاني 1389 — 9 يوليوز 1969.